الفصل الثالث والثلاثون

تتمة الرحلة العلمية في باقي معبد رمسيس الثالث

القسم الثاني هو المعبد الحقيقي ويمتاز بأبراجه الشامخة وهو كالسراي بمعنى أنه أثر لرمسيس المذكور بناء مدة حياته وزينه بأكمل زينة وجعل أبراجه للتفرج غابة وللتفكر آية لما حوته من بديع الصنعة والتواريخ منها لوحات عظيمة مؤرخة في السنة الحادية عشرة والثانية عشرة من حكمه تنبئنا بالوقائع الحربية والتجريدات التي جردها هذا الملك الجليل لسلامة الوطن من الأعداء كقتال أهل ليبيا والمشواشيين وباقي الأمم التي زحفت على مصر من سواحل البحر الأبيض المتوسط وجبال آسيا الغربية التي إتحدت قلباً وقالباً على الإيقاع بها ويرى على وجهة البرج من جهة الشمال صورة الملك وبيده مقمعة وهو متهيىء لأن يضرب بها فوجاً من الأسارى الجاثين على ركبهم الرافعين إليه يد الضراعة والإبتهال ومعبوده (أمون هر ماخيس) يناوله نحو بلطة ويمدحه بخطبة ترجمها العلامة شباس وصورتها أيها الابن الذي خرجت من أحشائي أنت الذي أنطتك بمحبتي أنت ملك الخافقين أنت رمسيس الثالث رب السيف على وجه الأرض ها أنا جعلت قبائل بتي ببلاد النوبة تحت قدميك وأحضرت لك رؤساء الممالك الجنوبية يحملون لك أولادهم على ظهرهم كباقي المحصولات النفيسة الخارجة من بلادهم تقتل منهم من تشاء وتعفو عمن تشاء وقد وجهت وجهي إلى الشمال وحففتك بعجائب فعلي وجعلت تاتشر (أي الارض الحمراء) تحت قدميك فإكسر بأصابعك كل من لم يسلك منهم جادة الصواب وغقلب الهيروشاوو بسيفك المنصور وقد أحضرت لك الأمم الذين ما سمعوا بمصر يحملن حقائبهم (صناديقهم) المفعمة بالذهب والفضة واللازورد الحقيقي وكل الأحجار الكريمة وكل ما يخرج من تانوتر (الأرض المقدسة) جعلته أمام وجهك الحسن فإختر منه ما تشاء ثم وجهت وجهي إلى الشرق وحففتك بغرائب فعلي وأوثقت جميع سكانه بين يديك وجمعت لك كل محصول مملكة بون (أرض الحجاز) فصار في حضرتك كل محصول أراضيها وكل نباتها العطري ثم وجهت وجهي إلى الغرب وحففتك بغرائب فعلي فإضرب بلاد تاهنو الذين يأتون إليك وهم ركع يعبدونك ويقعون جريهم من صوتك المخيف أه.

ثم نجد بعد ذلك حوشاً محاطاً من أحد جوانبه بأساطين ضخمة ذات تيجان لها هيئة أكمام البشنين الذابلة وبالجهة الثانية دعائم مربعة عليها تماثيل جافية على هيئة رمسيس الثالث في زي المعبود أوزيريس وفي الجدار الجنوبي لوحة عظيمة عليها صورة أمون وموت والملك رمسيس يقدم لهما ثلاثة صفوف من الأسارى الذين أتى بهم من أهل آسيا وبالصف الأسفل منها أمة البروزاتا وبالصف المتوسط أمة تعرف باسم تعاناوونا ومعها أمة أخرى من الشراكسة التي إستوطنت في بلاد ليبيا ذكرها بطليموس الجغرافي باسم تينايا وبالصف الأعلى أمة تدعى شكرشا وهي أمة ثالثة من جهة جبال القوقاز ظن بعضهم أنهم هم الشراكسة وقد تحرف اسمهم على مدى الزمن وقال بروكش باشا أن هذه الأمة طائفة من سكان ليبيا كانت أتت لمحاربة مصر مع من أتى من الاحزاب ولما هزمت سكنت جهة ليبيا وعلى الحائط الشمالي كتابة نفيسة إشتغل بها العالم الشهير روجه وحل معانيها وأظهر حقيقة ما بها من التواريخ وليس في الخمسة عشر سطراً لعليا منها عظيم فائدة لأنها ألقاب ملوكية وعناوين سلطانية ولايهمنا ذكرها أما التواريخ والوقائع الحربية فتبتدئ من أول السطرالسادس عشر وهي تتضمن غزوات هذا الملك مع أمة الخيتاس (الهيثيين)

وأمة كاتي وأمة كركماشا وسكان أراتق وأروزا الذين إنضموا مع أمة بوروزاتا وأمة التكاري والشكرشا وأمة تعاناوونا وأمة الأواشلشا وهجموا على مصر وأرادوا الإستيلاء عليها وكان المصاف بين الفريقين في البحر في أحد مصبات النيل وقد ضربنا صفحاً عن ذكر تفاصيل هذه الواقعة المهولة إذ ليس هذا كتاباً للتاريخ ومن ذلك تعلم أن زمن هذا الملك كان زمن محن لكن قام لحماية الوطن أحسن قيام ودفع صولة بجميع هؤلاء الأحزاب الذين كانوا دائماً يتوعدون مصر بالقدوم ويهددونها بالهجوم.

فإذا غادرنا هذا المكان ودخلنا من الباب المصنوع من حجر الجرانيت ألفينا حوشاً عظيماً معدوداً من أنفس الآثار المصرية قد أحيط من أربع جهاته بمشاية أو مجاز مستور بالنقش والكتابة الملونة اللطيفة وفي المجاز الشمالي والجنوبي أساطين عظمة لتيجانها شكل أكمام البشنين أما المجاز الشرقي والغربي فعمده مربعة كان يرتكز عليها تماثيل الملك المذكور وبهذا الحوش كثير من هشيم تلك العمد المطروحة على الأرض وحجرها رملي وبقى به إلى الآن ثلاثة أو أربعة عمد قائمة على أصلها والسبب في هذا الخراب هو أن النصارى حولوا هذا الحوش إلى كنيسة عند دخول الدين المسيحي بمصر أما الكتابة التي على المجاز فكثيرة جداً ولا يسعنا التكلم عن شيء منها في هذا

المختصر ويرى الإنسان على يساره وهو داخل صورة الحرب والكفاح ويجب على المتفرج أن يتعود على رؤية صورة الملك الهائلة فإنه مصور كأعظم ما يكون بالنسبة لغيره وهو راكب على عربته وقد إندفع بها بوسط الأعداء وهم يولون أمامه مدبرين وقال بعض العلماء أن هذه الأمة من أهل ليبيا وترى لوجوههم في آخر اللوحة سماجة أو بساطة يستغرب منها النظر ولا يستحسنه والأعداء تقع على بعضهم من شدة الوجل والخوف وعلى الحائط الجنوبي لوحة أخرى صور بها ضباط الجيش المصري وقواده يأتون بالأسارى إلى ملكهم المنصور وبجوارهم كتابة تذكر أن عددهم بلغ ألفاً والقتلى ثلاثة آلاف وبجوارها كتابة أخرى تذكر تفصيل الواقعة غير أنها تلفت لتقادم العهد عليها حتى محيت معالمها أما اللوحة الثالثة ففيها صورة الملك وهو محفوف بعساكره وعائد إلى مصر يتقدمه لفيف من الأسارى المقرنين في الأصفاد وترى باللوحة الرابعة صورته أيضاً وهو يقدم الأسارى إلى معبوداته بعد دخوله مدينة طيبة وهذه اللوحات الحربية تشغل جميع الجزء الأسفل من الجهة الشرقية والجنوبية وترى باللوحة الرابعة صورته أيضا وهو يقدم الأسارى الى معبوداند بعد دخوله مدينة طيبة وهذه اللوحات الحربية تشغل جمع والشمالية من الحوش المذكور أما الجزء الأعلى ففيه رسم وأشكال مهمة لا تنقص قيمتها عن قيمة الأربع لوحات السالفة الذكر وهي تستحق النظر وتكلم عليها شمبليون الشاب الفرنساوي أبو علماء الآثار وهاك نص عبارته. هذه الأشكال عبارة عن رمسيس الثالث وهو خارج من سرايته بمحمله المزين بأجمل زينة يحمله اثنا عشر ضابطاً وهو متحل بالحلية الملوكية وعليه أبهة كبار الملوك ورأسه مجملة بريش النعام قد جلس على تخت لطيف فوق المحمل وإستتر بأجنحة تماثيل من الذهب كانت عندهم رمزاً على الحق أو العدل وبجوار تخته صورة أبي الهول وهو رمز على العقل والقوة ثم صورة أسد للدلالة على القوة وشدة البأس وحول المحمل ضباط يحملون مراوح أو مظلات وحوله شبان من أولاد الكهنة يحملون قضيب ملكه وجفير قوسه وباقي علاماته الملوكية وحول الحمل تسعة من أمراء العائلة الملوكية وأكابر الدول الذين ترقوا من الطائفة الكهنوتية يمشون صفين ثم عساكر تحمل قاعدة المحمل والمدرج يخف الجميع فرقة من الجند وأمام الملك طائفة من رجال الدولة المختلفي الدرجات يمشون بإنتظام والمغنون أوالمرتلون أمام الموكب تتلوهم الموسيقى وبها المزمار والطبل والنفير ثم أهل الملك وأقاربه وفيهم كثير من الكهنة ثم ابنه البكري ثم قائد العسكر يمشي أمام الملك وينجره وبعد ذلك ترى الملك أتى إلى معبد هوروس ودنا من المحراب وسكب الخمر وحرق البخور ودخن واثنان وعشرون كاهناً يحملون تخترانا مزيناً وبه صنم المعبود يسير بين

المراوح والمظلات وأغصان الأزهار والملك يمشي على قدميه أمام التخترون وهو متوج تاج مصر السفلى فقط يتقدمه ثور أبيض وهو رمز على معبودهم أمون هوروس أو أمون رع وهو زوج أمه (أي زوج أم الملك على حسب إعتقادهم) وكاهن ينجر ذلك الثور وفي أعلى اللوحة صورة زوجة الملك مرسومة وهي شاخصة لهذا الإحتفال الديني وبمجرد ما يتجاوز صنم المعبود عتبة الهيكل يعلن أحد الكهنة بالأدعية الخاصة بذلك ويتقدم تسعة عشر كاهناً يحمون العلامات السرية وهي الأواني المقدسة وموائد القرابين وجميع أدوات العبادة ويمشي سبعة من الكهنة أمام الجميع يحملون على أكتافهم تماثيل صغيرة وهي صور الملوك السالفين أجداد الملك كأنهم يحضرون زفاف حفيدهم المنصور أه.

أما الأربعة طيور المرسومة هناك فهو أنهم كانوا يعتقدون أنها المردة أولاد أوزيريس المحامون عن الأربع جهات الأصلية (أي المشرق والمغرب والشمال والجنوب) وكانوا يقولون أن للكاهن الأعظم السيطرة عليهم وهو الذي يسرحهم إلى هذه الأربع جهات ليخبروا من بها من السكان أن رمسيس وضع على رأسه تاج الصعيد والبحيرة كالمعبود هوروس أما باقي الرسم فقال عنه شمبليون السالف الذكر أنه عبارة عن الملك قد تتوج بالعلامة المسماة بشنت وأخذ يتلو آية الشكر لمعبوده ومعه ضباط معيته وأمامه طائفة من القسس والموسيقى المقدسة ثم ترى بعد ذلك كأنه يحصد جرزة من القمح بمنجل من ذهب وعلى رأسه خودة الحرب كأنه خارج من سرايته ثم يستأذن في الرواح باراقة الخمر لدى معبوده أمون هوروس الذي دخل في محل قدسه وبجوار الملك الثور الأبيض وتماثيل أجداده قائمون على قواعدها وزوجته مصورة كأنها تشاهد جميع ما يفعله ثم كاهنين أحدهما يعزم ويزمزم والآخر يبتهل وهو يرتجل أه.

ثم نتوجه إلى الحائط الجنوبي من الخارج فنرى عليه صورة جدول به أسماء الأعياد التي كانت تقام في هذا المعبد وليس لذكرها فائدة هنا أما ما على الحائط الشمالي من الخارج فقد تطرقت له الأيام بالدمار لكنه في الأهمية بمكان حتى أن الزائرين يتخيلون أنهم في متحف مصري جليل يتركب من عشر لوحات مرتبة النظير لنظيره وعليها الوقائع الحربية التي حدثت في السنة التاسعة من حكم هذا الملك وكانت بينه وبين أهل ليبيا وأمة التكاري وهاك بيانها.

(اللوحة الأولى) بها سيرالجنود وترتيبهم وصورة الأسلحة المصرية التي كانت مستعملة عندهم في ذلك العصر.

(اللوحة الثانية) بها واقعة حربية هائلة كان النصر فيها للمصريين على أعدائهم أهل ليبيا الذين هم من نسل أمة تماهو وفيها الملك يقاتل بنفسه والقتلى أمامه لا تعد ولا تحصى.

(اللوحة الثالثة) بها المصريون قتلوا اثنى عشر ألفاً وخمسمائة وخمسة وثلاثين عدواً وقواد الجيش تقدم الأسارى إلى الملك.

(اللوحة الرابعة) بها الملك قام خطيباً بين ضباط عسكره يستفزهم على القتال والعسكر حاملة سلاحها متهيئة للمشي والهجوم على العدو وتفاصيل هذه اللوحة عجيبة فللمتفرج أن يمعن النظر فيها.

(اللوحة الخامسة) بها سير العساكر مرة ثانية وهي تمشي صفوفاً أما النص الذي عليها فمدح للملك ولعبودات.

(اللوحة السادسة) بها واقعة حربية ونصرة ثانية والأعداء المرسومون بها هم التكاري والملك يرميهم ويقلبهم فوق بعضهم و يهجم على معسكرهم فتفر منه النساء والأطفال على عربات تجرها الثيران.

(اللوحة السابعة) بها سير جديد وكأن الجنود المصرية إخترقت مسبعة أي أرض ذات سباع (لعلها إحدى الأراضي الواقعة على إحدى السلاسل الجبلية الخارجة من جبل لبنان) والملك إقتنص سبعاً وجرح آخر ولعل هذا المكان هو الذي قتل به الملك أمونوفيس الثالث المائة أسد وعشرة المذكورة على أحد الجعارين الموجود الآن بالمتحف المصري حيث يذكر به أنه قتل بيده مدة العشر سنين الأول من حكمه مائة أسد وعشرة.

(اللوحة الثامنة) هي اللوحة الوحيدة في جميع الآثار المصرية لأنه مرسوم عليها كيفية حرب البحر في تلك الأزمان وكانت الملحمة بالقرب من الساحل وفي مصب أحد الأنهار وترى أسطول التكارى إنضم إلى أسطول أمة الشرتنة وهجما على الأسطول المصري وحصل هيجاء غير واضحة البيان فيها غرقت سفينة من العدو فإنكسرت وصعد قاعها في الهواء أما رمسيس وعساكر الرماة فكانوا على الساحل يساجلون العدو ويرشقونه بالنبل والنشاب.

(اللوحة التاسعة) بها كأن الجنود عائدة إلى الأوطان ثم وقفوا عند حصن يدعى (رمسيس حق أن) وهناك يحصون القتلى بواسطة عد أيديهم التي قطعوها منهم في ميدان الحرب والاسارى تمشي صفوفاص أمام الملك وهو يخطب أمام أولاده وقواد جيشه. (اللوحة العاشرة) بها الملك

كأنه دخل مدينة طيبة وهو يرفع أيادي الشكر لمعبوداته التي منت عليه هذا النصر وبها خطاب منه لمعبوداته وخطاب منهم إليه ثم خطاب من الأسارى إليه وهم رافعون أكف الضراعة ويبتهلون له كي يرأف بهم ويطلق سراحهم لينشروا فضل شجاعته وشدة بأسه زمناً طويلًا بين الناس الذين لم يرونه.

فينتج مما ذكرناه أن هذا المعبد هو أحد الآثار المصرية المهمة جداً مع أننا لم نتكلم عليه إلا بوجه الإيجاز وإذا أردنا الوقوف على غرض الملك من بنائه لم نجد له تأويلًا إلا ما قلناه في معبد الرمسيوم ومن دقق النظر علم أن إنتخابه لهذا المكان وجعله معبداً على ساحل الصحراء بالقرب من المقابر لم يكن بلا سبب قد خفي علينا الآن والله أعلم بالغرض منه.

أما المقابر الموجودة بهذه الجهة فليس في رؤية أغلبها كبير فائدة بيد أننا لم نر بأساً من الإلماع بذكر أهم ما بها وأولها مقابر ذراع أبي النجا وهي الآبار المنبوشة والآكام المتراكمة فوق بعضها الواقعة عن يمين الإنسان متى كان في معبد القرنة وقصد معبد الرمسيوم وهي أقدم مقابر حفرت بمدينة طيبة لأن بعضها يصعد تاريخه إلى زمن العائلة الحادية عشرة والسابعة عشرة وأول الثامنة عشرة وقد سبق ذكر ذلك في الرحلة العلمية عند الكلام على مدينة طيبة ومن هذا المكان تحصلت مصلحة الآثار المصرية على المصاغ الثمين المنسوب للملكة عاحوتب وليس في رؤية هذه المقابر فائدة عظمى للزائرين.

فإذا جاوزنا هذا المكان إلى الجنوب وصلنا إلى مقابر العصاصيف وتنسب إلى العائلة التاسعة عشرة والثانية والعشرين والسادسة والعشرين وكان من عادة القوم في ذلك العهد أن يجعلوا موتاهم في حجرات بهذه المقابر أو في عمق متر فأكثر وليس لها آبار كذراع أبي النجا وسقارة وغيرهما ومن البديهي أن المتفرج لا يتيسر له مشاهدة جميع هذه الأماكن ما لم يكن معه خبير من أهل تلك الجهة أو رسم عام لأن كل كتاب ألفه علماء الآثار في وصفها لا يفيد غير مسائل عامة للأماكن المهمة ومن الباني لها وما كان غرضه بذلك وتفسير بعض النقوش والنصوص وغير ذلك من الأشياء التي لابد منها. أما مقابر برقونة مرعي ومقابر الشيخ عبد القرنة فواقعة بالقرب من هذا المكان وكلها من أيام العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة الطيبية (راجع جدول العائلات صحيفة ٣٩) وجميعها منحوت في سفح الجبل وفي سيفه وأبوابها مفتوحة إلى كل ناحية من رآها من البعد ظن أنها حوانيت خربة معلقة في الجبل يعلو بعضها بعضاص بلا ترتيب تمتد إلى أمد

بعيد ولبعضها وضع خاص يبدو لعين الرائي أنها مزاغل جعلت في طوابي أو إستحكامات بالجبل أو أفواه بألسنة تطلب الرجة لساكنيها وتدعو على من يمسها بسوء فإذا دنا منها وجدها أروقة منحوتة يتصل بها قاعات جعلها لإجتماع أهل الميت وأقاربه في الأعياد ثم أبار تفضي إلى حجرات صغيرة تكون بها الأموات وقد سبق ذكر نظيرها عند الكلام على مقابر سقارة وفي الغالب يكون بها نقش وزينة أو كتابة تنبئ بما كان للميت من الخيرات والنعيم والعيشة الرغدة وهو مصور كأنه على قيد الحياة محاط بخدمه وحاشيته وحوله آلات الطرب وهو بين عائلته وتارة تراه قائماً على رأس عماله وهم يباشرون زراعة الأرض وغير ذلك ولنقتصر من هذا على مقبرة هوى بضم الهاء وكسر الواو ولو أن نقوشها أوشكت أن تزول لكثرة عبث الأيدي بها وكان هوى المذكور من رجال الدولة الثامنة عشرة وهو مرسوم بها ملقب بلقب أمير بلاد الكوش أي حكمدار السودان وتراه قائماً كأنه أتي لإستلام وظيفته وأمامه أفواج من الناس المختلفي الأجناس والألوان ولكل واحد سيمة وتقاطيع خاصة به قد أحضر بعضهم له زرافات وثيران ذوات قرون طويلة تنتهي بما يماثل راحة اليد وبعضهم يقدم له حلقات من الذهب وسبائك من النحاس ومن جلود الحيوانات المفترسة والمراوح ذوات الأيدي الطويلة وريش النعام وفي لوحة أخرى مرسوم كأنه عاد من مأموريته ببلاد الروتنو (بلاد الأسوريين أو الكلدان) وتمثل لدى الملك سيده الجالس على كرسيه ليقدم له وكلاء الأمم أو رسلهم وعليهم نحو مآزر زاهية اللون قد إلتحفوا بها جملة مرات فأغنتهم عن الثياب ومعهم عبيد أو موال عراة الأجسام ما لهم غير ستر ينزل خاصرتهم إلى دون سوأتهم بيض الوجوه المشربة بالحمرة ولهؤلاء القوم لحية مرسلة دقيقة من أسفلها وهم وقوف يقدمون إلى الملك هدايا منها الخيل والسباع وسبائك من المعادن النفيسة والأواني المصوغة من الذهب والفضة لها شكل غريب جدًا.

وفي هذه السنين الأخيرة إكتشفت مصلحة الآثار بواسطة الحفر على كثير من هذه المقابر المزينة بالرسم والكتابة الملوّنة الدالة على ما كان لمصر من الجاه والثروة منها مقبرة ركما رع وهي في الحسن غاية وفي البهجة آية منقوش على حيطانها صور رجال أتت من بلاد «پون» بلاد اليمن والحجاز كأنهم دخلوا مصر في موكب يعملون معهم برسم الجزية النسانيس والعاج وغير ذلك من نفائس بلادهم ثم صورة رجال أتت من سواحل الشام والبحر الرومي يحملون هدايا من محصول بلادهم ليقدموها إلى ركما رع المذكور فيقبضها منهم بإسم الملاك طوطوميس الثالث ملك ذلك العصر وفي الرواق الأخير صورة عمل الطوب وفتل الحبال وتطريق المعادن وتشييد

البناء وغير ذلك من الصنائع التي كانت جارية تحت مباشرة هذا الأمير وتراه وهو مسافر لمناظرة جميع هذه الأشغال في زورق «سفينة صغيرة» ثم جدول القرابين التي كانت تقدم له بعد موته وبذلك صار لهذه المقابر أهمية كلية غير أن أهل القرنة تسلطوا على بعضها فأخذوا من نقشها ورسمها ما شاء الله إقتلعوها من الجدر وباعوها للسائحين فصارت مشوهة بعد أن كانت تسر الناظرين فكأنها ما إنكشف حجابها إلا لتكون طعمة لهم ولذا إضطرت مصلحة الآثار أن تجعل على أغلبها أبوابًا من الحديد لتحفظ ما بقي بها وأناطت بحراستها الخفراء والحراس ورتبت لهم الرواتب.

فإذا عرفنا هذا عدنا إلى مقابر العصاصيف السالف ذكرها وصلنا إلى الغرب فترى هناك مقبرة كبيرة جدًا تعرف بإسم مقبرة پتامينوفيس وهي ظلام يسكنها الخفاش كباقي المغارات والكهوف الكبيرة المظلمة ولها رائحة كريهة نفاذة لما بها من خرئه ورجيعه حتى إن الإنسان الذي لم يتعود على شم مثل هذه الرائحة لا يستطيع الدخول فيها ويظهر من حالتها أنها إحترقت في الأزمان السالفة وبالقرب منها باب معقود بالآجر «الطوب الأحمر» وله وضع غريب سيما عقد القبة التي عليه بيد أن أهل القرنة عبثت بهما فأتلفوهما وحوّلوا ما بهم من الأحجار الأثرية إلى جير وباعوا كل ما إستحسنوه إلى تجار الأنتيكة بالأقصر أو الإفرنج الذين يأتون في كل سنة لزيارة الآثار بالصعيد وقال ماريت باشا إن هذا المكان إعتراه من الدمار في هذه الأيام الأخيرة ما لم يعتره مدة ثلاثة آلاف سنة وبذلك صار مهملًا لا يمكن وصفه لأنه تحول إلى أطلال بالية وأقدم قبر بني في هذه البقعة كان في أيام العائلة السادسة والعشرين وأحدثها كان في أول دولة البطالمة.